مواقف أهل الكتاب والمنافقين والجن
من القرآن في ضوء القرآن

د. عبد الحميد بن عبدالرحمن السحيباني
الأستاذ المساعد بمركز البحوث والدراسات بكلية الملك فهد الأمنية

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. وبعد..

فهذا بحث ميسر في بيان مواقف أهل الكتاب والمنافقين ومؤمني الجن من القرآن في ضوء الكتاب العزيز، نرى فيه الصدق في الإيمان، وكمال الخضوع والخشوع في مواقف المؤمنين من أهل الكتاب والجن، ونرى فيه كذلك على النقيض مواقف الكفار من أهل الكتاب والمنافقين، حيث الصدود، والإعراض، والتعنت، والاستكبار عن قبول الحق.

هنا نرى الهدف البارز من سياق هذه المواقف العجيبة وهو تبشير من آمن من اليهود والنصارى والجن بالفوز في الآخرة والسعادة في الدنيا كما حصل ذلك لمن آمن قبلهم، وتحذير الكفار من أهل الكتاب والمنافقين والجن من سلوك سبيل من سبقهم من المعاندين المستكبرين بأنهم إن لم يذعنوا لهذا الكتاب المبين فإن العذاب والدمار ينتظرهم في الآخرة، لن يجدوا موئلاً لفرار، ولن يفلتوا منه بحال.

قسمت البحث إلى ثلاثة فصول، تناولت في الأول مواقف أهل الكتاب مؤمنهم وكافرهم، وفي الثاني موقف المنافقين، وفي الثالث موقف المؤمنين من الجن، وجعلت تحت كل مبحث ما يناسبه، وسلكت في ذلك منهج التفسير الموضوعي، ولم أتعرض للمباحث التحليلية إلا بما تفرضه طبيعة البحث، وقد حرصت على اختيار المصادر الأصلية في البحث، واجتهدت في ربط الموضوع بقضايا العصر والواقع الذي نعيشه للحاجة الشديدة في ذلك، وكلي أمل ورجاء أن ينفع الله ـ عز وجل ـ به كل من قرأه وتأمله،

وما ذلك على الله ـ بعزيز، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

***

تمهيد:

قبل الدخول في الحديث عن مواقف أهل الكتاب من القرآن الكريم أحب أن أشير هاهنا إلى عدة حقائق في ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: حث أهل الكتاب على الإيمان بالقرآن

حث أهل الكتاب على الإيمان بالقرآن أمر قرره الله ـ عز وجل ـ في القرآن؛ وهذا يشير إلى أهمية دعوة أهل الكتاب إلى النظر في القرآن والاعتبار بما فيه من الدعوة إلى الحق، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تاسَ على القوم الكافرين﴾(١) .

هنا يوجه الله ـ عز جل ـ الخطاب إلى أهل الكتاب بأنم ليسوا على شيء من الدين حتى يؤمنوا بالكتب المنزلة من عند الله ـ تعالى ـ مما هي بأيديهم، ويعملوا بما فيها، وخص القرآن بالذكر في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ بعد ذكر التوراة والإنجيل لأن من لم يؤمن بالقرآن فليس مؤمناً وإن آمن بجميع الكتب،وتفسير ﴿وما أنزل إليكم من ربكم﴾ بأنه القرآن هو الذي ورد عن السلف كما قال مجاهد بن جبر ـ يرحمه الله ـ(٢) ، وعلى الرغم من كون آيات القرآن هي المقصودة بالذات فقد قُدم عليها ذكر التوراة والإنجيل، وقد عَلّل لذلك الإمام الألوسي في "روح المعاني"(٣) بقوله: "رعاية لحق الشهادة، استنـزالاً لهم عن رتبة الشقاق" يريد بذلك أن في التوراة والإنجيل ما يشهد بصحة القرآن وأنه حق، وقوله: استنـزالاً الخ أي استدعاء لهم أن لا يشاقوا الله ورسوله ز ، وقد يراد بـ(ما أنزل إليكم..﴾ سائر الكتب السماوية(٤) ... لكن الأول أولى، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره(٥) بسندٍ حسنه ابن حجر في "فتح الباري"(٦) عـن ابن عبـاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء مالك بن الصيف وجماعة من الأحبار فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنا حق من الله، قال: بلى ولكنكم أخذتم وجحدتم ما فيها مما أُخذ عليكم من الميثاق، وكتمتم

منها ما أمرتم أن تبينوه للناس. فتبرأت من أحداثكم. قالوا: فإنا نأخذ ما في أيدينا فإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك فأنزل الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ الآية قال ابن حجر(٧) : "وهذا يدل على أن المراد بـ(وما أنزل إليكم من ربكم) هو القرآن".

ويشهد لهذا التفسير قول سفيان الثوري: "ما في القرآن آية أشد عليّ مـ ـن ﴿لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعني أن من لم يعمل بما أنزل الله في كتابه فليس على شيء.

ونحو ذلك قرره الله ـ عز وجل ـ في سورة البقرة، يقول سبحانه: ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون﴾(٨) .

ومرجع الضمير في قوله ـ سبحانه ـ ﴿أول كافر به﴾ راجع إلى القرآن.

وقال بعضهم: هو راجع إلى محمد ﷺ، أي لا يكونوا أول كافر به من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه والقولان صحيحان، لأنهما متلازمان، ذلك أن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن.(٩)

فإن قال قائل: كيف قيل:(أول كافر به) مع أنه قد كفر به آخرون من غير بني إسرائيل مثل كفار قريش وغيرهم من العرب؟

والجواب: أن المراد من الآية والله أعلم ـ: أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أول من كفر به من جنسهم(١٠) .

المطلب الثاني: أهل الكتاب يعلمون أن القرآن حق

هذه حقيقة قررها الله ـ عز وجل ـ في القرآن لا مناص منها لأهل الكتاب الذين ينكرون القرآن ويكذبونه، لأن المخبر بذلك هو من يعلم السر وأخفى، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين

آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين﴾[١١] .

فقولـه ـ سبحانه ـ: ﴿يعلمون أنه منزل من ربك﴾ يريد به القرآن، وقال(يعلمون) ولم يقل يظنون، لأن العلم لا يكون إلا حقاً بخلاف الظن فقد يكون حقاً وقد يكون باطلاً، فأهل الكتاب إذاً عندهم علم ويقين أن القرآن حق، وأنه منزل من عند الله ـ تعالى ـ، ليس بسحر ولا بكلام بشر كما يزعم المشركون.

يقول الطبري: "فالذين آتيناهم الكتاب وهو التوراة والإنجيل، من بني إسرائيل، يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، يعني القرآن وما فيه بالحق، يقول فصلاً بين أهل الحق والباطل، يدل على صدق الصادق في علم الله ـ تعالى ـ وكذب الكاذب المفتري عليه، فلا تكونن يا محمد من الممترين أي من الشاكين في حقيقة الأنباء التي جاءتك من الله"[١٢] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والكتاب الذي أنزل مفصلاً هو القرآن العربي باتفاق الناس، وقد أخبر أن الذين آتاهم الكتاب يعلمون أنه منـزل من الله بالحق، والعلم لا يكون إلا حقاً، فقال (يعلمون) ولم يقل: "يقولون" فإن العلم لا يكون إلا حقاً، بخلاف القول، وذكر علمهم ذكر مستشهد به"[١٣] .

وقال الشيخ كذلك: "وقال: إنهم يعلمون ذلك ولم يقل إنهم يظنونه أو يقولونه، والعلم لا يكون إلا حقاً مطابقاً للمعلوم بخلاف القول والظن الذي ينقسم إلى حق وباطل"[١٤] أ. هـ.

ولا شك أن هذه الآية الكريمة تحذير وتهديد لأهل الكتاب من الإعراض عن الاهتداء بهذا الكتاب والإيمان بما فيه، وبيان أن من لم يؤمن بهذا الكتاب ويعمل بما فيه فليس له جزاء إلا النار وبئس القرار.

إننا إذا تأملنا واقع أهل الكتاب اليوم نرى أنهم لا يزالون يعلمون أن القرآن منزل من عند الله بالحق، وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذي يتلبس به، ومن هذا الحق الذي يحتويه، وما يزالون ـ من أجل علمهـم بهذا كله ـ يحاربون هذا الدين ويحاربون هذا الكتاب حرباً لا تهدأ، وأشد هذه الحرب وأنكاها هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر، وجعل غير الله حَكَماً حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة، ولا يصبح لدين الله

وجود. وإقامة ألوهيات أخرى في البلاد التي كانت الألوهية فيها لله وحده، يوم كانت تحكمها شريعة الله التي في كتابه، ولا تشاركها شريعة أخرى ولا يوجد إلى جوار كتاب الله ـ تعالى ـ كتب أخرى، تستمد منها أوضاع المتمع، وأصول التشريعات، ويرجع إليها ويستشهد بفقراتها كما يستشهد المسلم بكتاب الله وآياته، وأهل الكتاب من صليبيين وصهيونيين ـ من وراء هذا كله، ومن وراء كل وضع،وكل حكم يقام لمثل هذه الأهداف الخبيثة(١٥) .

المطلب الثالث: أهل الكتاب قسمان: مؤمنون بالقرآن وكافرون

هذا أمر قرره الله ـ عز وجل ـ في القرآن في شأن أهل الكتاب، وأنهم ليسوا سواء بل فيهم المؤمن بالقرآن، المصدق برسول الله ز ، الخائف من الله ـ تعالى ـ، المتطلع إلى عفوه ومغفرته في الآخرة، وفيهم الكافر المعاند، المحرف للحق، المعرض عنه، المفرط في العداوة، يقول ـ سبحانه ـ ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾(١٦) .

قال البيضاوي: "أمة مقتصدة: عادلة غير غالية ولا مقصرة، وهم الذين آمنوا بمحمد ﷺ وكثير منهم ساء ما يعملون أي بئس ما يعملونه وفيه معنى التعجب أي ما أسوأ عملهم وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض عنه، والإفراط في العداوة"(١٧) .

ولما ذكر الله ـ عز وجل ـ أهل الكتاب ذكر أن منهم مَنْ ﴿يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾(١٨) ثم قال في الآية بعدها ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون. يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾(١٩) .

وأما الكفار منهم: فهم الذين عناهم الله بقوله ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾(٢٠) .

ولا شك أن هذا التقسيم لأهل الكتاب، وبيان أن منهم المؤمن والكافر دعوة لهم صريحة إلى الإذعان للحق لما سيلقى أهله من الحبور والسرور يوم القيامة، وتحذير

لهم من سلوك طريق الكفر والضلالة والعناد، فإن من يفعل ذلك سيلقى الجزاء الرادع له يوم القيامة بالخلود في النار، وبئس القرار.

المبحث الأول : موقف المؤمنين من أهل الكتاب

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: التصديق.

المطلب الثاني: الفرح.

المطلب الثالث: البكاء.

المطلب الأول : التصديق :

هذا الموقف يبين حال المؤمنين من أهل الكتاب تجاه القرآن وأنهم يؤمنون به ويصدقونه ولا يكذبونه كما قرر ذلك ربنا ـ عز وجل ـ في جملة من الآيات، قـال ـ سبحانه ـ: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إن كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[٢١] .

فقولـه ـ سبحانه ـ: ﴿هم به يؤمنون﴾ أي بالقرآن أو الرسول[٢٢] وكلاهما صواب، لأنه لا تعارض بينهما، ويقوي الأول قولـه ـ تعالى ـ بعدُ: ﴿وإذا يتلى عليهم﴾ يعني القرآن[٢٣] ، و﴿قالوا آمنا به﴾ يعني القرآن[٢٤] .

وهؤلاء المؤمنون هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى، لكن النصارى أكثر، وقد توجد هذه الصفة في اليهود ولكن قليلاً كما وُجِد في عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يبلغوا عشرة أنفس، أما النصارى فكما تقدم، كثير منهم الذين يؤمن بالقرآن ويسلم، وقد ثبت[٢٥] أن جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ لمّا قرأ سورة(كهيعص) بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساوسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم.

وذكر ابن كثير حديثاً هنا وهو ما رواه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لمّا تُوفي النجاشي قال رسول الله ﷺ : "استغفروا لأخيكم" فقال بعض الناس:

يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة، فنزلت:﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾[٢٦] .

وهذا الذي قرره الله ـ عز وجل ـ في سورة المائدة قرره سبحانه في سورة النساء، إذ يقول ـ سبحانه ـ: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك...﴾[٢٧] .

ذكر ـ سبحانه ـ إيمانهم هنا بالقرآن بعد أن بين أن منهم من انحرف عن الاستقامة وتمرد وعصى فعوقب جزاء كفره وطغيانه: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً. وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾[٢٨]

وهذه الآية الكريمة في إيمان بعض أهل الكتاب بالقرآن، وهم الراسخون في العلم منهم والمؤمنون، والراسخون في العلم هم الثابتون في الدين الذين لهم قدم راسخة في العلم، فهؤلاء يؤمنون بالقرآن الذي أنزله الله ـ تعالى ـ على محمد ﷺ وبالكتب التي أنزلها الله ـ تعالى ـ على الأنبياء السابقين، لأنهم قد علموا بما قرءوا من كتب الله ـ تعالى ـ، وبما أتتهم به أنبياؤهم أن محمداً رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأنه يجب عليهم اتباعه لا يسعهم غير الذي علموا من أمره ﷺ بالعلم الراسخ في قلوبهم من إخبار أنبيائهم إياهم بذلك.. فهم لذلك من علمهم ورسوخهم في العلم يؤمنون بما أنزل إلى النبي ز من القرآن وبما أنزل من قبله من سائر الكتب كما أخرج الطبري في تفسيره عن قتادة ـ رحمه الله ـ في قوله:(لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) قال: استثنى الله ـ تعالى ـ أُثْبِيةً[٢٩] من أهل الكتاب، وكان منهم من يؤمن بالله وما أنزل عليهم وما أنزل على نبي الله، يؤمنون به ويصدقون به ويعلمون أنه الحق من ربهم[٣٠] .

وقد ذكر أن هذه الآية نزلت في عبدالله بن سلام وثعلبة بن سعية، وأسد بن سعية وأسد بن عبيد الذيين دخلوا في الإسلام وصدقوا بما أرسـل الله بـه محمداً ﷺ [٣١] .

المطلب الثاني : الفرح بإنزال القرآن :

هذا أحد مواقف أهل الكتاب تجاه القرآن كما ذكر ذلك ـ سبحانه ـ في سورة الرعد، إذ يقول ـ سبحانه ـ: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليـك﴾(٣٢) .

قال مجاهد بن جبر ـ يرحمه الله ـ إنهم مؤمنو أهل الكتاب(٣٣) ، ونقل القرطبي عن أكثر العلماء: كان ذكر الرحمن في القرآن قليلاً في أول ما أنزل، فلما أسلم عبدالله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فسألوا النبي ز عن ذلك، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾(٣٤) فقالت قريش: ما بال محمد يدعو إلى إله واحد، فأصبح اليوم يدعو إلهين: الله والرحمن، واللهِ ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب، فنـزلت ﴿وهم بذكر الرحمن كافرون﴾(٣٥) ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾(٣٦) ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن فأنزل الله ـ تعالى ـ:﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾ الآية(٣٧).

ولا شك ولا ريب أن المؤمن يفرح بما أنزل من آيات القرآن لأنها تدله على كل خير، وتحذره من كل شر، تقربه من منزلة الرحمن الرحيم ـ جل جلاله ـ بما فيها من بيان عظمة الله ـ عز وجل ـ وقدرته الباهرة القاهرة، بما فيها من أسماء الله ـ تعالى ـ وصفاته الدالة على المعاني العظيمة، والآلاء الجسيمة على العباد.

وليعلم العبد المؤمن أن الفرح بما أنزل الله ـ عز وجل ـ من آيات القرآن أرفعُ درجات القلوب، لأن من فرح بالقرآن فقد فرح بأعظم مفروح به، وهذا بخلاف من فرح بغيره، فإنه يكون ظالماً لنفسه لأنه يكون قد وضع الفرح في غير موضعه.

والعبد المسلم إذا استقر في قلبه وتمكن فيه العلم بكفايته ـ سبحانه ـ لعبده ورحمته له وحلمه عنه وبره به وإحسانه إليه على الدوام مما هو مسطر في آيات القرآن أوجب له ذلك الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال مترقياً في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف(٣٨) ، وهذا بخلاف غير المؤمن فإنه يسؤوه ما يخالف قواعده الباطلة مما أنزل من آيات القرآن كما قال ابن القيم(٣٩) .

وإذا كان الله ـ عز وجل ـ قد ذكر عن أهل الكتاب أنم يفرحون بما نزل من القرآن فإن أولياء الله ـ عز وجل ـ وأتباع رسوله محمد ﷺ أحق بالفرح بالقرآن، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾(٤٠) .

وقال ـ تبارك اسمه ـ: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾(٤١) قال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله(٤٢) ، وقال هلال بن يساف: فضل الله ورحمته الإسلام الذي هداكم إليه، والقرآن الذي علمكم هو خير من الذهب والفضة الذي تجمعون(٤٣) ، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والحسن وقتادة وجمهور المفسرين: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن(٤٤) .

وما ذكره الله ـ عز وجل ـ من فرح أهل الكتاب بآيات القرآن هو فرح القلب كما تقدم، وهو من الإيمان، يثاب عليه العبد، ذلك أن فرحه يدل على رضاه به، بل هو فوق الرضا، فالفرح بذلك على قدر محبته، يفرح بحصوله له، والفرح بالله وأسمائه وصفاته ورسوله ﷺ وسنته وكلامه محض الإيمان وصفوته ولبه، وله عبودية عجيبة، وأثر القلب لا يعبر عنه، فابتهاج القلب، وسروره، وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ز ولقائه أفضل ما ُيعطاه، بل هو جل عطاياه، والفرح في الآخرة بالله ـ تعالى ـ ولقائه بحسب الفرح به في الدنيا، فالفرح بالوصول إلى المحبوب يكون على حسب قوة المحبة وضعفها، فهذا شأن القلب،وله فرح آخر، وهـو فرحـه بما مَنْ الله ـ عز وجل ـ عليه من الإخلاص له والتوكل عليه والثقة به وخوفه ورجائه، وكلما تمكن في ذلك قوي فرحه وابتهاجه، وله فرحة أخرى عظيمة الوقع، عجيبة الشأن، وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها البتة، ولو عرف العاصي أن لذة التوبة وفرحتها يزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافاً مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية.(٤٥)

ولا شك أن هذه الأمور التي تقدم ذكرها مما ُيسطر في آيات القرآن بيانه وتوضيحه، وهو داخل تحت ما أجمله ربنا ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾.

المطلب الثالث : البكاء والخشوع :

عندما يخضع المرء للحق متجرداً من كل هوى وشهوة يشعر باقشعرار جلده لما نزل من آيات القرآن، فيخشع عند ذلك قلبه ثم تتبع ذلك تلك الدموع، فتسيل على وجنتيه تعظيماً لمنـزل هذا الكتاب ـ تبارك وتعالى ـ، وتلك هي حال المؤمنين من أهل الكتاب، سائرين على منهج المؤمنين من أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا متصفين بهذا الوصف كما تقدم معنا عند ذكرنا لصفاتهم وموقفهم من القرآن. ها هو القرآن الكريم يذكرنا بهذا الموقف العظيم عند مؤمني أهل الكتاب يقول ـ سبحانه ـ: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾(٤٦) .

هكذا تأثر هؤلاء المؤمنون من النصارى بآيات القرآن فأجهشوا بالبكاء، لأنهم سمعوه سماع فقه وقبول، فلأجل ذلك تأثروا به.

وقد أخرج الطبري في تفسيره(٤٧) في سبب نزل الآية عن السدي قال: بعث النجاشي إلى النبي ﷺ اثني عشر رجلاً يسألونه ويأتونه بخبره، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ القرآن فبكوا، وكان منهم سبعة رهبان وخمسة قسيسون، أو خمسة رهبان وسبعة قسيسون، فأنزل الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق...﴾.

يقول ابن جرير في معنى(تفيض من الدمع): "فيض العين من الدمع امتلاؤها منه ثم سيلانه منها كفيض النهر من الماء"(٤٨) ا. هـ

وفي قصة جعفـر بن أبي طالب وباقي أصحابـه ممن هاجـر إلى الحبشة ـ رضي الله عنهم ـ مع النجاشي ما ينبئ بهذه الصفة العظيمة، وذلك عندما طلب النجاشي شيئاً مما جاء به ﷺ فقرأ عليه جعفر صدر سورة مريم: ﴿كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفياً. قال رب إني وهن العظم مني واشتَعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً. وإني خفتُ الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب من لدنك ولياً. يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً..﴾ الآيات

فماذا حدث لما قرأ جعفر الآيات الكريمة في صدر سورة مريم؟! لقد بكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكى أساقفته حتى ابتلت كتبهم التي يحملونها، والظاهر أن النجاشي ومن معه كانوا قد درسوا من لسان العرب ما فهموا به ما تلي عليهم من سورة مريم[٤٩] .

إن تأثر هؤلاء المؤمنين من النصارى بالقرآن وخشوعهم أمر لفت القرآن الكريم أنظار المؤمنين إليه في نهاية سورة آل عمران عندما قال ـ جل شأنه ـ: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾[٥٠] .

إن ذلك الفيض من الدموع وهذا الخشوع يدل دلالة واضحة على ذلك التأثر العميق بالحق الذي سمعوه، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير، وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلى وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العجيب.

وهؤلاء المؤمنون من النصارى لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن، والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان.. إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفاً إيجابياً صريحاً، موقف القبول لهذا الحق، والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قويةٍ عميقة صريحة: ﴿يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنـــا ربنا مع القوم الصالحين﴾[٥١] .

إنه موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله ﷺ من الحق، موقف الاستماع والمعرفة، ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة مع دعاء الله ـ سبحانه ـ أن يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق، الذين يؤدون شهادتهم سلوكاً وعملاً وجهاداً لإقراره في الأرض، والتمكين له في حياة الناس، ثم وضوح الطريق في تقديرهم وتوحده بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمضوا إلا في طريق واحد هو طريق الإيمان بالله، وبالحق الذي أنزله على رسوله ﷺ ولقد كان

جزاء هؤلاء الذين فاضت أعينهم بالدموع وتأثرا بالقرآن العظيم وآمنوا به حق الإيمان لقد كان جزاؤهم عظيماً جد عظيم، ذلك أن الله ـ عز وجل ـ علم صدق قلوبهم وألسنتهم، وصدق عزيمتهم على المضي في الطريق وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه، فقبل ـ سبحانه ـ منهم قولهم، وكتب لهم الجنة، وشهد لهم بأنهم المحسنون: ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسـنين﴾(٥٢) .

* الصعق والغشي عند سـماع القرآن.

إذا كنا قد ذكرنا أن من صفات المؤمنين من أهل الكتاب بكاءهم عند سماع آيات القرآن فلا بد أن ننبه إلى أنه لا يدخل في ذلك أبداً التكلف الذي يحدثه بعض الناس من الصعق والغشي عند سماع القرآن، فإن ذلك من تسويل الشيطان ونزغاته، منكر عند أهل الدين، كما ذُكر عن عبدالله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرأوا القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهـم الله ـ تعالى ـ ، تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قلت: إن ناساً هاهنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية. فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم(٥٣) .

وهذا ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ يَمر برجل من أهل العراق ساقط والناس حوله، فقال: ما هذا؟ فقالوا: إذا قرئ عليه القرآن أو سمع الله ـ تعالى ـ يُذْكر خر من خشية الله! فقال ابن عمر: والله إنا لنخشى الله ولا نسقط(٥٤) .

وفي "حلية الأولياء" لأبي نعيم عن عامر بن عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ قال: جئت أبي، فقال: أين كنت؟ فقلت: وجدتُ أقواماً ما رأيت خيراً منهـم، يذكرون الله ـ تعـالى ـ فيرعد أحدهم حتى يغشى عليه من خشية الله ـ تعالى ـ فقعدت معهم.

فقال: "لا تقعد بعدها. فرآني كأنه لم يأخذْ ذلك ِفي أي" لم يقتنع عامر بكلام أبيه عبدالله بن الزبير، فقال: أي عبدالله ابنَ الزبير: رأيت رسول الله ﷺ يتلوا القرآن ورأيت أبا بكر وعمر يتلوان القرآن، فلا يصيبهم هذا. أفتراهم أخشع لله ـ تعالى ـ من أبي بكر وعمر؟ يقول الابن: فرأيت ذلك كذلك فتركتُهم(٥٥) .

وعند ابن الجوزي في "تلبيس إبليس" أن ابن الزبير قال لابنه: " يا عامر لاعرفن ما صحبتَ الذين يصعقون عند القرآن لأوسعك جلداً"[٥٦] .

هذه كلها أدلة دامغة بالحل أولئك المبتدعة من الخوارج وغيرهم الذين أحدثوا هذه البدعة المنكرة تجاه القرآن.

المبحث الثاني : موقف الكفار من أهل الكتاب :

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: إظهار الإيمان تلبيساً.

المطلب الثاني: الإنكار والجحود.

المطلب الثالث: تمنيهم عدم نزل القرآن حسداً.

المطلب الرابع: الكفر به ونبذه وراء الظهور.

المطلب الأول : إظهار الإيمان تلبيساً وخداعاً :

هذا موقف من مواقف الكفار من أهل الكتاب، وهو إظهار الإيمان بالقرآن تلبيساً وخداعاً ومكراً، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل. وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾[٥٧] .

هنا نجد التلبيس والخداع عندما يصانعون المؤمنين في الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر، يقولون: آمنا بالقرآن، وصدقنا برسولكم ز ولكنهم في الحقيقة قد دخلوا بالكفر أي عند رسول الله ز مستصحبين الكفر في قلوبهم ثم خرجوا وهو كامن فيها لم ينتفعوا بما قد سمعوا من العلم، ولا نجحت فيهم المواعظ ولا الزواجر[٥٨] .

ويعضد ذلك ما ذكره الله ـ عز وجل ـ في سورة آل عمران عندما قـال: ﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون * ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم..﴾(٥٩) .

إنهم يقولون: أظهروا الإيمان بالقرآن أول النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون. واكفروا به آخره لعلهم يشكون في دينهم ظناً بأنكم رجعتم لخلل ظهر لكم، قيل المراد بالطائفة أناس من اليهود هم كعب من الأشرف ومالك بن الصيف، قالا لأصحابهما لمّا حُولت القبلة. آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم صلوا إلى الصخرة آخره لعلهم يقولون: هم أعلم منا وقد رجعوا، فيرجعون(٦٠) .

وقيل إنها نزلت في اثنى عشر من أحبار خيبر تقاولوا بأن يدخلوا في الإسلام أول النهار ويقولوا آخره: نظرنا في كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمداً ﷺ بالنعت الذي ورد في التوراة لَعَل أصحابه يشكون فيه(٦١) .

وهكذا نرى هنا هذا المكر الكبار من هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب عندما أرادوا التلبيس على المؤمنين باتباع القرآن والإسلام ثم الرجوع عنهما ليقول ضعاف النفوس من المسلمين: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه، إذ لا يمكن أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب.

لقد أراد هؤلاء الماكرون إيقاع السذج من الناس في بلبلة واضطراب وبخاصة العرب الأميين الذين كانوا يظنون أن أهل الكتاب أعرف منهم بطبيعة الديانات والكتب، فإذا هم رأوهم يؤمنون ثم يرتدون حسبوا أنهم ارتدوا بسبب إطلاعهم على خبيئة ونقص في هذا الدين، وتأرجحوا بين اتجاهين فلم يكن لهم ثبات على حال.

وما محاولات المستشرقين الحثيثة لدراسة الإسلام وتشريعاته إلا علامة واضحة على إرادتهم التلبيس والخداع والتضليل لكل من يستطيعون الوصول إليه من المسلمين، والواجب على دعاة الإسلام وعلمائه كشف محاولات هؤلاء المجرمين وفضحهم، ودعوة المسلمين إلى الحذر من هؤلاء وأمثالهم، ودعاء الله ـ عز وجل ـ أن يقيهم شرهم ومكرهم، والأخذ من أهل العلم الموثوقين الذين يحذرون من الآخرة ويرجون رحمة الله ـ تعالى ـ.

المطلب الثاني : الإنكار والجحود :

هذه سمة من سمات أهل الكفر من أهل الكتاب تجاه القرآن، أنم ينكرون ويجحدون، كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾[٦٢] قال مجاهد بن جبر ـ يرحمه الله ـ: "أي من اليهود والنصارى من ينكر بعض أي بعض ما جاءك من الحق" وكذا قال قتادة وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم[٦٣] .

وقد أخرج الطبري عن ابن زيد في الآية أنه قرأها فقال:(ومن الأحزاب من ينكر بعضه) اليهود والنصارى والمجوس، منهم من آمن به، ومنهم من أنكره[٦٤] .

وعن ابن جرير عن مجاهد أنه قال:﴿من ينكر بعضه﴾ قال: بعض القرآن[٦٥] وقرر ـ سبحانه ـ إنكارهم وجحودهم للقرآن في سورة الأنعام: ﴿وما قدر والله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلون قراطيس تبدونا وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾[٦٦] قال الحسن وسعيد بن جبير: الذي قاله: أحد اليهود، قال: لم ينزل الله كتاباً من السماء. قال السدي: اسمه فنحاص. وعن سعيد ابن جبير قال: هو مالك بن الصيف، جاء يخاصم النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ـ وكان حبراً سميناً ـ فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه الذين معه: ويحك، ولا على موسى؟ فقالك واللهِ ما أنزل الله على بشر من شيء، فنزلت الآية[٦٧] .

وفي نماية الآية نجد أمراً من الله ـ عز وجل ـ لنبيه ز أن يقول لهؤلاء المنكرين الجاحدين: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، مما يجعله اليهود صحائف يخفون بعضها ويظهرون بعضها. وأمره أن يواجههم بأن الله ـ تعالى ـ علمهم بما يقص عليهم من الحقائق والأخبار ما لم يكونوا يعلمون، فكان حقاً عليهم أن يشكروا فضل الله، ولا ينكروا أصله بإنكار أن الله ـ تعالى ـ نزل هذا العلم على رسوله وأوحى به إليه.

ولم يترك لهم أن يجيبوا على ذلك السؤال. إنما أمر رسول الله ز أن يحسم

القول معهم في هذا الشأن، وألاّ يجعله مجالاً لجدل لا يثيره إلا اللجاج: ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ قل: الله أنزله.. ثم لا يهمك جدالهم ولجاجهم ومراؤهم، ودعهم يخوضون لاهين لاعبين.

ويمضي السياق يحكي شيئاً عن الكتاب الجديد، الذي ينكر الجاحدون أن يكون الله ـ تعالى ـ أنزله، فإذا هو حلقة مسبوقة جاءت قبلها حلقات: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذين بين يديه، ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾(٦٨) .

وإنه ليكفي من كان لـه قلب ما ثبت عنه ﷺ في حق الجاحدين ما بعثه الله ـ تعالى ـ من الحق والنور بقولـه: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"(٦٩) .

المطلب الثالث : عدم تمنيهم نزول القرآن على المؤمنين حسداً :

هذا موقف آخر للكفرة من أهل الكتاب تجاه القرآن، وهو أنهم يتمنون ألاّ ينـزل القرآن على المؤمنين، كل ذلك من باب الحسد والبغض لهم: ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾(٧٠) .

يقول الطبري: "تمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب ألاّ ينـزل الله عليهم الفرقان وما أوحاه إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته، وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك حسداً وبغياً منهم على المؤمنين".

يقول ابن جرير معقباً: "وفي هذا دلالة بينة على أن الله ـ تبارك وتعالى ـ نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين والاستماع من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم بإطلاعه ـ جل ثناؤه ـ إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون"(٧١) .

وهنا نشير إلى أمر عجيب في سمات اليهود الكفرة، لقد بلغ هؤلاء القوم من

الحنق والغيظ من أن ينزل الله ـ تعالى ـ من فضله على من يشاء من عباده مبلغاً يتجاوز كل حد، وقادهم هذا إلى تناقض لا يستقيم في عقل، لقد سمعوا أن جبريل ـ عليه السلام ـ ينزل بالوحي من عند الله ـ تعالى ـ على محمدﷺ .

ولما كان عداؤهم لمحمد ﷺ قد بلغ مرتبة الحقد والحنق فقد لجّ بم الضغن أن يخترعوا قصة واهية وحجة فارغة، فيزعموا أن جبريل ـ عليه السلام ـ عدوهم، لأنه ينزل بالهلاك والدمار والعذاب، وأن هذا هو الذي يمنعهم من الإيمان بمحمد ﷺ من جراء صاحبه جبريل ـ عليه السلام ـ! ولو كان الذي ينـزل إليه بالوحي هو ميكائيل لآمنوا: ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين. من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين﴾[٧٢] .

إن هذه السمة من سمات يهود حماقة مضحكة حقاً، ولكن الغيظ والحقد يسوقان إلى كل حماقة، وإلا فما بالهم يعادون جبريل؟ وجبريل لم يكن بشراً يعمل معهم أو ضدهم، ولم يكن يعمل بتصميم مِنْ عِندِهِ وتدبير؟ إنما هو عبدا لله يفعل ما يأمره، ولا يعصي الله ما أمره.

إنه ـ عليه السلام ـ لم يكن له هوى شخصي ولا إرادة ذاتية في أن ينزله على قلب محمد ﷺ، إنما هو منفذ لأمر الله ـ عز وجل ـ: ﴿فإنه نزله على قلبك بإذن الله﴾[٧٣] .

وإن من عجيب تافت اعتقاد هؤلاء اليهود الكفرة أنم يثبتون أن جبريل الذي ينزل بالقرآن مَلك مرسل من الله ـ تعالى ـ ويبغضونه! وهذا من أحط درجات الانحطاط في العقل والعقيدة، ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبيء عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام[٧٤] .

المطلب الرابع : الكفر بالقرآن ونبذه وراء الظهور:

تلك صفة هي أخس صفة عند يهود: الكفر بالقرآن ونبذه وراء الظهور مع أن الأمر واضح لا لبس فيه ولا غموض، ولكنها قسوة القلوب وجمود العيون، والحسد والغل الذي اجتمع فيهم فقادهم إلى الهلاك، قادهم إلى أن طبع الله ـ تعالى ـ

على قلوبهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

إن هذا العناد والاستكبار بالكفر بالقرآن ونبذه وراء الظهور قرره الله ـ عز وجل ـ وبينه أعظم بيان: ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون. ولمّا جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينـزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين. وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم قل فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾(٧٥) .

هنا في هذه الآيات كما يذكر الحافظ ابن كثير لما جاء اليهود كتاب من عند الله وهو القرآن الكريم الذي أنزل على محمد ﷺ مصدق لما معهم من التوراة، وكانوا من قبل مجيء الرسول ز بالقرآن، كانوا يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: سيبعث نبي في آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وإرم كما روى قتادة الأنصاري عن أشياخ منهم قالوا: فينا والله وفيهم أي الأنصار واليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة، يعني ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله...﴾ الآية قالوا: كنا قد علوناهم قهراً، دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك، وهم أهل كتاب، وهم يقولون: إن نبياً سيبعث الآن نتبعه، قد أضل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما بعث الله ـ تعالى ـ رسوله ز من قريش واتبعناه كفروا به(٧٦) .

ولقد كان الكفر منهم قبيحاً جد قبيح، لماذا؟

لأنهم كفروا بالنبي الذي ارتقبوه واستفتحوا به على الكافرين، فكان جزاء هذا الكفر القبيح الطرد والغضب ومِنْ ثَّم يصب عليهم اللعنة ويصمهم بالكفر، ويُفضح السبب الخفي لهذا الموقف الشائن: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين﴾.

وهكذا كان الثمن المقابل لأنفسهم هو الكفر! فيالِلهِ العجب، إن الإنسان

ليعادل نفسه بثمن ما، يكثر أو يقل، لكنْ أن يعادلها بالكفر فتلك هي الطامة، وقد كان هذا هو واقع هؤلاء عندما كفروا بالقرآن بسبب حسدهم لرسول الله ﷺ أن يختاره الله ـ عز وجل ـ للرسالة التي انتظروها فيهم.

والقرآن العظيم يعجب من موقفهم هذا ومن كفرهم بما وراء الذي معهـم: ﴿وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾.

وما لهم وللحق؟ وما لهم أن يكون مصدقاً لما معهم! ما داموا لم يستأثروا هم به؟ إنهم يعبدون أنفسهم، ويتعبدون لعصبيتهم، بل إنهم ليعبدون هواهم، ولم يكن كفرهم بالقرآن أول كفر لهم، فقد كفروا بما جاءهم به أنبياؤهم به، ونجد هنا أن الله ـ عز وجل ـ يلقن نبيه ﷺ أن يجبههم بهذه الحقيقة، كشفاً لموقفهم وفضحاً لدعواهم: ﴿قل فلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾.

نعم لماذا تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين حقاً بما أنزل إليكم، وهؤلاء الأنبياء هم الذين جاءوكم بما تدّعون أنكم تؤمنون به؟ ثم كفرتم بما جاءكم به نبيكم الأول موسى وعلى الرغم من ذلك بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتـم ظالمون.(٧٧)

الفصل الثاني : موقف المنافقين من القرآن :

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التذمر والغضب عند نزول الآيات الفاضحة لهم.

المبحث الثاني: الزيادة في الكفر.

المبحث الثالث: التحاكم إلى الطاغوت.

المبحث الرابع: استهزاؤهم بآيات الله.

المبحث الأول : التذمر والغضب عند نزول الآيات الفاضحة لهم :

إن مسلك المنافقين الذي يسلكونه تجاه دين الله ـ تعالى ـ هو مسلك المخادع الذي يحاول بكل ما يستطيع أن يطعن في الإسلام وأهله دون أن ينتبه له، ولكن أنى لهم ذلك وهذه آيات القرآن تفضحهم وتبين مكرهم وألاعيبهم.

لقد قرر الله ـ عز وجل ـ في القرآن ما يبين موقفاً مخزياً لهؤلاء المنافقين تجاه

القرآن الكريم الذي يعلمونه علم اليقين، ذلك أنه إذا أنزلت سورة تفضح هؤلاء المنافقين وتبين عيوبهم تغامزوا بالعيون إنكاراً وسخرية بها، ثم انصرفوا مظهرين أنهم لا يصطبرون على استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾(٧٨) .

يقول الطبري ـ يرحمه الله ـ شارحاً معنى الآية: "يقول تعالى ذكره وإذا ما أنزلت سورة من القرآن فيها عيب هؤلاء المنافقين الذين وصف ـ جل ثناؤه ـ صفتهم في هذه السورة وهم عند رسول الله ﷺ نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد إن تكلمتم أو تناجيتم بمعايب القوم يخبرهم به ثم قاموا فانصرفوا من عند رسول الله ﷺ ولم يستمعوا قراءة السورة التي فيها معايبهم، ثم ابتدأ جل ثناؤه قوله: ﴿صرف الله قلوبهم﴾ فقال: صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ قلوب هؤلاء المنافقين، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون، يقول: فعل الله بهم هذا الخذلان وصرف قلوبهم عن الخيرات من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله ـ تعالى ـ مواعظه استكباراً ونفاقاً"(٧٩) .

وهذه الآية الكريمة تكشف أمراً مهماً عند المنافقين في كل زمان ومكان، وهو أنهم يبغضون الحق ولا يريدون سماعه أبداً، فلذلك تجدهم عند بيان الحق يتسللون على أطراف أصابعهم في حذر تام خوفاً من انكشاف أمرهم.

والآية الكريمة تصدق على أولئك الذين ترى على وجوههم علامات الغضب والكره عند تلاوة الآيات المشتملة على أسماء الله ـ تعالى ـ الحسنى، وصفاته العليا، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: "فانظر إلى وجوه ورثة الذين قال الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾(٨٠) "يريد بذلك ابن القيم ـ يرحمه الله ـ كشف أستار المبتدعة والضلال من الجهمية والمعتزلة ممن يقول إن إثبات أسماء الله ـ تعالى ـ وصفاته يستلزم التشبيه والتجسيم، مما هو معلوم البطلان، كما قرر أئمة الدين وحراس الملة أن إثبات السمع والبصر مثلاً لله ـ تعالى ـ إنما هو على ما يليق بجلاله ـ سبحانه ـ لا كسمع المخلوقين وأبصارهم : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع

البصير﴾[٨١] .

المبحث الثاني : الزيادة في الكفر :

هذا موقف آخر من مواقف المنافقين من القرآن الكريم، وهو أنهم لا يتعظون بالقرآن ولا ينتفعون، بل تزيدهم الآيات شراً إلى شرهم، ومرضاً إلى مرضهم، بسبب ما انطوت عليه قلوبهم من الشك والريب في الإسلام وأهله، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[٨٢] .

هنا يبين ـ جلا وعلا ـ مقولة المنافقين: ﴿أيكم زادته هذه إيماناً﴾ فهو خطاب من بعضهم لبعض على سبيل التهكم بالمؤمنين وبالقرآن[٨٣] ، وهو "سؤال مريب لا يقوله إلا الذي لم يستشعر وقع السورة المنزلة في قلبه، وإلا لتحدث عن آثارها في نفسه بدل التساؤل عن غيره، وهو في الوقت ذاته يحمل رائحة التهوين من شأن السورة النازلة والتشكيك في أثرها في القلوب.

لذلك يجيء الجواب الحاسم ممن لا راد لما يقول: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ أي شراً إلى شرهم، وضلالة إلى ضلالتهم[٨٤] .

فإن قال قائل: وكيف تزيدهم السورة القرآنية شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم؟

قيل: إنهم لمّا "كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها ازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك والطبع على قلوبهم حتى ماتوا وهم كافرون"[٨٥] ، ولذلك قال سبحانه بعدها: ﴿أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين...﴾[٨٦] ، والجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان، ولا يظلم ربك أحداً، ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[٨٧] .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يرحمه الله ـ أنه يدخل في الآية الكريمة ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ ذلك الصنف من الناس أصحاب القلوب المريضة، الذين يحبون أن يسمعوا سورة يوسف لما فيها من ذكر

العشق وما يتعلق به، يقول ـ يرحمه الله ـ: "فمن الناس من يحب سماع هذه السورة ـ يعني سورة يوسف ـ لِما فيها من ذكر العشق وما يتعلق به لمحبته لذلك ورغبته في الفاحشة حتى إن من الناس من يقصد إسماعها للنساء وغيرهن لمحبتهم للسوء، ويعطفون على ذلك، ولا يختارون أن يسمعوا ما في سورة النور من العقوبة والنهي عن ذلك حتى قال بعض السلف: كل ما حصلته في سورة يوسف أنفقته في سورة النور. وقد قال ـ تعالى ـ : ﴿وننـزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ ثم قال: ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾[٨٨] ، وقال: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول: أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾[٨٩] ، فكل أحد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة المذمومة، ويبغض سماع ذلك إعراضاً عن دفع هذه المحبة وإزالتها فهو مذموم"[٩٠] .

وممن يدخل ضمن الآية الكريمة أولئك العلمانيون والماديون ومَنْ نحا نحوهم من أهل الزندقة والإلحاد، وذلك أنهم عندما يناصحون ويخوفون بآيات الله ـ تعالى ـ التي تحذر من الإفساد في جميع المجالات العقدية والشرعية والأخلاقية والدعوية فلا يزيدهم هذا التخويف إلا خبثاً ومكراً، حيث تراهم يراوغون، ويلتوون، ويلبسون، وإذا وجدت الأضواء الكاشفة التي تبين حقيقتهم، وما تخفيه قلوبهم إذا بهم يهبون في وجه حامليها كالكلاب المسعورة يتهمونهم بالتطرف وبكل بذيءٍ من الصفات، وصدق الله ـ تعالى ـ إذا يقول: ﴿يخـادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾[٩١] .

وبهذا يتضح لنا أن آيات القرآن لم تزد المنافقين إلا خساراً أو هلاكاً، ولم تزدهم إلا رجساً إلى رجسهم، لأنه ليس في قلوبهم شيء من الخير، ومعلوم أن المحل إذا كان غير قابل ووصل الهدى إليه لم يؤثر فيه، كما يصل الغيث النازل من السماء ويقع على الأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فلم ينفع فيها الماء لأنها غير قابلة لـه، وقد أوضح ابن القيم ـ يرحمه الله تعالى ـ ذلك أتم إيضاح فقال: "وإذا لم يكن المحل قابلاً وصل إليه الهدى فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئاً، بل لا يزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فساده، كما قال ـ تعالى ـ في السورة التي أنزلها: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم

يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾[٩٢] ، وقال تعالى: ﴿ونـنـزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾[٩٣] .

فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدى تارة، ولعدم فعل الفاعل، وهو الهادي، تارة، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة. وقد قال ـ سبحانه ـ: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾[٩٤] ، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه قطع عنهم الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء، ويقع على الأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماء، ولا تنبتُ كلأً، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكّد الله ـ تعالى ـ هذا المعنى في حقهم بقوله: ﴿ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى، وهي الكبر والإعراض، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق، ولم يعملوا به، فالهدي في حق هؤلاء هدى بيان وإقامة حجة، لا هدى توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدى في حقهم بالرحمة"[٩٥] .

المبحث الثالث: الإعراض عن القرآن بالتحاكم إلى الطاغوت

إن مما تقرر بوضوح في شريعة الله ـ عز وجل ـ أن من ادعى الالتزام بشيء من هذا الدين ثم حاد عنه فلم يعمل به، ولم يحركه في واقعه وجميع شؤونه فهو كاذب مخادع، وهذا ما عاب الله ـ عز وجل ـ به أناساً يدخل فيهم دخولاً أولياً أولئك المنافقون الذين كانوا يزعمون أنهم آمنوا بما سواه من كتب الله ـ تعالى ـ السابقة، هكذا زعموا بألسنتهم، فإذا جاء وقت العمل إذا بهم يرجعون القهقرى، فيضربون صفحاً عن القرآن، ويتحاكمون إلى الطاغوت، فينقضون بذلك شرط الإيمان وحد الإسلام، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ألم تَرَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما

أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً. وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾(٩٦) .

ولنا تجاه هذا الحَدَث عدة وقفات:

أولاها: أن الآيات الكريمة عامة في كل من تحاكم إلى غير شريعة الله ـ عز وجل ـ من الأنظمة الوضعية، والدساتير الأرضية، ولكن يدخل في ذلك المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر دخولاً أولياً، ويشهد لذلك عدة أمور، هي:

ما أخرجه ابن جرير في تفسيره(٩٧) أنه كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فكان المنافق يدعو إلى اليهود لأنه يعلم أنهم يقبلون الرشوة، وكان اليهودي يدعو إلى المسلمين لأنه يعلم أنهم لا يقبلون الرشوة فاصطلحا أن يتحاكما إلىكاهن من جُهينة، فأنزل الله ـ تعالى ـ فيه هذه الآية: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك...﴾

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره(٩٨) ، والطبراني في معجمه الكبير(٩٩)، وصححه السيوطي(١٠٠) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله - تعالى -: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا﴾ إلى قوله: ﴿إحساناً وتوفيقاً﴾(١٠١) .

أن الله ـ تعالى ـ قال: ﴿يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾ والذين كانوا يزعمون ذلك هم المنافقون(١٠٢) .

أن سياق الآيات يؤيد ذلك، لأن الله ـ عز وجل ـ قال في الآية التالية: ﴿وإذا قيل لهم تعالـوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسـول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾(١٠٣) فنصّ على ذكر المنافقين(١٠٤)، ومن القواعد الترجيحية عند المفسرين "مهما أمكن إلحاق الكلام بما يليه أو بنظيره فهو الأولى"(١٠٥).

وثانية الوقفات: أن يحذر العبد من المعصية؛ لأنها ربما أوبقته وأهلكته إذا لم يتب منها،وهذا هو حال هؤلاء المنافقين الذين يرفضون التحاكم إلى القرآن، ويكرهون

ذلك،ثم يهرعون مسرعين إلى التحاكم إلى الطاغوت، فانظر ماذا يحصل لهم من جراء ذلك: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾، فهذه الآية الكريمة "تفريع على قوله: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول﴾ الآية لأن الصدود عن ذلك يوجب غضب الله عليهم، فيوشك أن يصيبهم الله ـ تعالى ـ بمصيبة من غير فعل أحد، مثل انكشاف حالهم للمؤمنين، فيعرفوا بالكفر، فيصبحوا مهددين، أو مصيبة من أمر الله رسوله ز والمؤمنين بأن يظهروا لهم العداوة، وأن يقتلوهم لنفاقهم، فيجيئوا يعتذرون بأنم ما أرادوا بالتحاكم إلى أهل الطاغوت إلا قصد الإحسان إليهم وتأليفهم إلى الإيمان والتوفيق بينهم وبين المؤمنين. وهذا وعيد لهم؛ لأن (إذا) للمستقبل، فالفعلان، بعدها، وهما: ﴿أصابتهم﴾ و﴿جاؤوك﴾ مستقبلان، وهو مثل قوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً. ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾(١٠٦)"(١٠٧).

وثالثة الوقفات: أن في الآيات حثاً للمنافقين على التوبة من تركهم التحاكم إلى القرآن وإسراعهم إلى التحاكم إلى الطاغوت، عرفنا ذلك من قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾، وقوله: ﴿ولو أنم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾.

وهذا بلا شك دليل على أن المنافق إذا تاب من نفاقه فإن الله ـ تعالى ـ يقبل توبته إذا صدق فيها، قال ابن عساكر ـ يرحمه الله ـ: "فيقبل إسلام الكتابي والمرتد والكافر الأصلي.. وقد قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾(١٠٨) "(١٠٩) .

وقال كذلك: "وأكثر العلماء من أهل التحقيق على القول بقبول توبة الزنديق مع ما ينطوي عليه اعتقاده الرديء من الخبث، وما يعتقده من جحود الصانع، وإنكار البعث"(١١٠) .

وآخرة الوقفات: أن الآية الكريمة تنذر وتدد كل من حاول أن يتلاعب بالدين، بادعاء تحكيم الكتاب والسنة وتطبيق الشرع ثم يلتوي على نفسه ناقضاً العهد، محارباً للإسلام وتعاليمه، صاباً جام غضبه على كل ما يدعو إلى الشرف

والفضيلة، لقد رأينا هذا في مجموعات ادعت تحكيم الشرع فإذا بها تصب كل غضبها على من قال لها اتق الله، ورأينا ذلك في أناس ادعوا تحكيم الشرع، ثم تبين أنهم ممن سمحوا للفساد أن يدخل بيوت المسلمين، ورأينا ذلك في صحف ووسائل إعلامية كانت تبشر وتعد بأنها ستلتزم بأحكام الإسلام وآدابه فإذا بها تدعو للفاحشة، وتمهد لنشر الرذيلة بما تطرحه من أفكار منتنة، وصور عارية، ورأينا ذلك في أناس زعموا تطبيق الشريعة إذا وصلوا إلى الحكم ثم رأيناهم يجلسون مع رؤوساء الكفر لأجل متاع من الدنيا قليل، في موالاة صريحة للمشركين تحت سمع العالم وبصره، ربما لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، وهكذا دواليك دواليك، صور لا أول لها ولا آخر من تلك الإدعاءات الكاذبة، وصدق الله: ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون. إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون. ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقْهِ فأولئك هم الفائزون﴾(١١١) .

وهذه الآية الكريمة فيها ذم واضح لأولئك الذين يحتكمون إلى القرآن إذا كان موافقاً لأهوائهم، فإذا خالفها نبذوه، وضربوا به عرض الحائط، وهذه صفة الكذابين والمخادعين كذلك، قال ابن القيم ـ يرحمه الله ـ ذامّاً لهم: "فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق وحادوا عنه إلى طريق أخرى وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصراً لهم، وكان لهم صالوا به وجالوا وأتوا إليه مذعنين، لا أنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم، وانتصارهم به"(١١٢) .

وهكذا أيضاً تجد موقف المنافقين من سائر الأمور الشرعية التي دعا إليها القرآن، لا تجد إلا الإعراض والصدود والاعتذار بالأعذار الواهية، مثل ما ذكر سبحانه عن موقفهم من الجهاد: ﴿وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين. رضوا بأن يكونوا مع

الخوالف وطُبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾(١١٣) .

المبحث الرابع: الاستهزاء بالقرآن:

هذه صفة ذميمة تأصلت في نفوس المنافقين، وتعمقت جذورها في كل ذرة من أجسادهم، مما ينبئ بوضوح بتلك النوايا الرمة، والدسائس الخبيثة التي تدسسوا بها، وقد أنزل الله ـ عز وجل ـ في ذلك آيات لا تزال تتلى إلى قيام الساعة، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءوا إن الله مخرج ما تحذرون. ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين﴾(١١٤) .

وقد راجعت عدداً من كتب التفسير فلم أر أحداً ذكر آياتٍ بعينها كان المنافقون يستهزؤون بها، ولكن ثمة آثاراً متعددة تنبئ عن استهزائهم بعموم القرآن دون تحديد.

أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير في آية النساء: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره..﴾(١١٥) قال: "إن الله جامع المنافقين من أهل المدينة والمشركين من أهل مكة الذين خاضوا واستهزؤوا بالقرآن في جهنم جميعاً"(١١٦) .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد في قوله ـ سبحانه ـ : ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا﴾(١١٧) قال: يستهزئون بها، نهى محمداً ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسى، فإذا ذكر فليقم..(١١٨) .

وذكر القرطبي في تفسيره (١١٩) أن المنافقين كانوا يجلسون إلى أحبار اليهود، فيسخرون من القرآن!

وللاستهزاء بالقرآن صور متعددة، يسلكها المنافقون والمشركون ومن نحا نحوهم من أهل الزندقة والعلمنة، أذكرها فيما يأتي:

الاستخفاف بتوحيد الله ـ تعالى ـ الذي أمر به في معظم آيات القرآن، وتعظيم دعاء غيره من الأموات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يرحمه الله ـ في كلامه

على قوله ـ تبارك اسمه ـ: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون﴾(١٢٠) : "والضالون مستخفّون بتوحيد الله ـ تعالى ـ يعظمون دعاء غيره من الأموات، وإذا أُمروا بالتوحيد ونُهوا عن الشرك استخفوا به كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا﴾(١٢١) الآية فاستهزأوا بالرسول ز لمّا نهاهم عن الشرك، وما زال المشركون يسبون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد، لما في أنفسهم من عظيم الشرك.

وهكذا ترى مَنْ فيه شبه بنهم إذا رأى من يدعو إلى التوحيد استهزأ بذلك لما عنده من الشرك.. فهؤلاء الذين اتخذوا القبور أوثاناً تجدهم يستهزئون بما هو من توحيد الله ـ تعالى ـ وعبادته، ويعظمون ما اتخذوه من دون الله شفعاء، ويحلف أحدهم اليمين الغموس كاذباً، ولا يجترئ أن يحلف بأخيه كاذباً.

وكثير من طوائف متعددة ترى أحدهم يرى أن استغاثته بالشيخ إما عند قبره أو غير قبره أنفع له من أن يدعو الله ـ تعالى ـ في المسجد عند السحر، ويستهزئ بمن يعدل عن طريقته إلى التوحيد، وكثير منهم يخربون المساجد، ويعمرون المشاهد، فهل هذا إلا من استخفافهم بالله وبآياته ورسوله، وتعظيمهم للشرك...

وهؤلاء إذا قصد أحدهم القبر الذي يعظمه يبكي عنده ويخشع ويتضرع ما لا يحصل له مثله في الجمعة والصلوات الخمس، وقيام الليل، فهل هذا إلا من حال المشركين لا الموحدين، ومثل هذا أنه إذا سمع أحدهم سماع الأبيات حصل له من الخشوع والحضور ما لا يحصل له عند الآيات، بل يستثقلونها ويستهزئون بها، بمن يقرؤها مما يحصل لهم به أعظم نصيب من قوله: ﴿قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾(١٢٢) "(١٢٣) .

إن هذا الكلام الرصين لشيخ الإسلام ـ يرحمه الله ـ يذكرني بقصة معاصرة تبين كيف ينبذ بعض الناس القرآن وراء ظهره مستخفاً به وبالمؤمنين الذين يناصحونه أن يدع ما تدثّر به من الشرك البواح، يقول الراوي: ألّف أفغاني اسمه صبغة الله مجددي كتيباً صغيراً أسماه (متن بيانية صبغة الله مجددي) وكتب فيه أن هذا العالم له أربع زوايا، وفي كل زاوية منها ولي من أولياء الله يسمى القطب أو البَدَل، وهؤلاء الأقطاب الأربعة يتصرفون في الأكوان. يقول الراوي: اتصلت به وقلت له بالهاتف: إنني أخبرتُ

بأنك ألفت كتاباً اسمه كذا، فهل هذا صحيح؟ قال: نعم، تريده؟ قلت: لا أريده فقد وصلَ إليّ، ولكن أريد أن أناقشك فيه. قال الراوي: فسألني عن اسمي، فقلت: فلان، وكان يعرفني بالاسم، فضحك، وقال: آه، عرفتُك، أنت الوهابي الكبير الذي خرّب عقائد المسلمين... ثم أغلق السماعة ولم يجب بـ "لا" أو "نعم"!!

فانظر ـ يارعاك الله ـ إلى الاستخفاف والاستهزاء بما يدعو إليه هذا الموحد ـ إن شاء الله ـ من التوحيد، ونبذ الشرك الذي يقول فيه ـ سبحانه ـ: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾[(١٢٤)] ، ويقول: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[(١٢٥)] ، ويقول: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾[(١٢٦)] .

الهجوم على الحدود الشرعية التي قررها الله ـ عز وجل ـ في القرآن الكريم مثل حد السرقة الذي قال فيه ـ سبحانه ـ: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾[(١٢٧)] .

ووصف قطع يد السارق بأنه تشويه لليد، وقولهم: "أو لم يكن الأنسب أن تكون العقوبة أقل قسوة؟ السجن مثلاً مدة من الزمن"[(١٢٨)] .

الدعوة إلى تحرير الزواج والجنس وغيرهما من القيود الشرعية، ولمز ما دعت إليه الشريعة من الستر والعفاف والحجاب، والدعوى إلى التخلص من ذلك مما هو خاضع ـ حسب كلامهم ـ لصيغة عتيقة وتنصيعات قرآنية! كما يقول أحدهم واسمه: هشام جعيط: "ينبغي أن يركز الجهد على قانون الأحوال الشخصية الشاسع، والذي ما زال خاضعاً لصيغة عتيقة وتنصيعات قرآنية" فينبغي تخليص ما يعرف بقوانين الميراث، وتشريع الزواج وحتى "التشريع الجنسي" من عبء الفقه،وإخضاعه لمقولات العقل العالمي، وأن تضمن للمرأة المساواة في حقوق الإرث، وأن يقع العدول عن تعدد الزوجات، ويرتبط بذه الأمور تدخل العقلنة في تشريع المواريث"[(١٢٩)] .

الاعتراض على القصص القرآني، والزعم بأنه أساطير على عادة الأقدمين.

هذا محمد عمارة ينشر في كتابه "تجديد الفكر العربي" الكذب والبهتان والاستخفاف بالقرآن، فيقول: "فما في القرآن وما في كلام الرسل وما في نصوص

الديانة من إشاراتٍ للكون وحقائق علومه، أو قصص يحكي طرفاً من التاريخ لم يقصد بها تقرير الحقائق العلمية أو الوقائع التاريخية، ولا تحديد تصور ديني خاص لما يجب أن تكون عليه حقائق هذه العلوم ونظرياتها، بل يجب أن يكون العقل والتجريب هما المرجع والفيصل والسيد في هذه الميادين، هكذا قرر الإسلام!!

ولهذا انحاز القرآن! وعلى المفسرين له أن يتناولوا إشاراته العلمية والتاريخية بهذا النهج كي لا يكبلوا العقل المسلم بقيود لم يردها الله"(١٣٠) .

فانظر ـ يارعاك الله ـ إلى هذه الدرجة السحيقة من الاستخفاف بالقرآن عند هذا الرجل. وانظر كيف جعل من نفسه مفتياً كبيراً في كيفية تفسير الحقائق المسطرة في القرآن!!

وتأمل هنا كيف يحاول التلبيس والتضليل عندما يدلل على كذبه وبهتانه بقوله: "هكذا قرر الإسلام"!!

وهذا وأمثاله من المستخفين بالقرآن هم الذين عناهم الأستاذ محمد قطب ـ وفقه الله ـ عندما ذكرهم بقولـه: "وقام في الجامعة" أساتذة يقولون: إن القرآن من تأليف محمد ﷺ، وإن ورود القصة فيه ليس على سبيل الحقيقة، وإنما هو على سبيل "الفن" وإنه لا يجوز أن يعتبر القرآن مرجعاً تاريخياً، وإن ورود الأسماء والوقائـع فيه لا يعطيها وجوداً تاريخياً، إنما هي أقاصيص وأساطير على عادة الأقدمين.. وأصبح هذا أمراً واقعاً"(١٣١) .

محاولة بعضهم تفسير نصوص القرآن على ما تمليه عليهم شهواتهم وأهواؤهم(١٣٢)، مثل تفسير الرافضة للبقرة في سورة البقرة بأنها عائشة، ومثل تفسيرهم للجبت والطاغوت بأنهما أبو بكر وعمر.. الخ قاتلهم الله أنى يؤفكون.

وقل مثل ذلك مما يعد ضرباً من الاستخفاف والاستهانة بالقرآن ما يورده بعضهم لنيل مصلحة سياسية كما جاء عن بعضهم من تفسير الشجرة الملعونة في القرآن بأنها بنو أمية!(١٣٣) .

ما قام به بعض السفلة والساقطين في حمأة الرذيلة من استخدام القرآن الكريم في أغانيهم الهابطة وآلاتهم الموسيقية مثل ذلك المغني الذي غنّى "سورة الفاتحة"!!

***

حكم الاستهزاء بالقرآن:

الاستهزاء بالقرآن الكريم أو بشيء منه كفر، يخرج به قائله من دائرة الإسلام، فإنه لما ذكر الله ـ عز وجل ـ مقولة المنافقين في استهزائهم حكم بكفرهم: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون. لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾(١٣٤) .

وقد قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يرحمه الله ـ فقال: "ومن استهزأ بالله وآياته ورسوله فهو كافر باطناً وظاهراً"(١٣٥) .

وقال كذلك معلقاً على الآية الكريمة: "فقد أخبر أنم كفروا بعد إيمانم مع قولهم: إنما تكلمنا بالكفر مع غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بذا الكلام"(١٣٦) .

موقف المؤمنين من المستهزين بالقرآن:

إذا سأل سائل، فقال: ما موقفي إذا رأيت الذين يستهزؤون بالقرآن؟

قيل له: موقفك باتباع الخطوات التالية:

أن تعرض عنهم، وتحذر من القعود معهم، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾(١٣٧) .

قال البيضاوي:(في آياتنا) آيات القرآن، بالتكذيب والاستهزاء والطعن(١٣٨) .

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر با ويستهزأ با فال تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾(١٣٩) .

قال الشوكاني معلقاً على الآية الأولى: "وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله ز ، ويردون ذلك إلى أهوائهم المضلة، وبدعهم الفاسدة، فإنه إذا لم ينكر عليهم، ويغير ما

هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم، وذلك يسير عليه غير عسير، وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عمّا يتلبسون به شبهة يشبهون با على العامة، فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر"(١٤٠) .

ومن هنا يتضح لنا أن للنهي عن القعود مع المستهزئين حِكَماً، فمنها:

لئلا يتوسل الشيطان بذلك إلى استضعاف حرص المؤمنين على سماع القرآن، لأن للأخلاق عدوى(١٤١)، فإنه ربما جالس ضعيف العلم بالكتاب والسنة هؤلاء المستهزئين فعندئذٍ "ينفق عليه من كذباتم وهذيانم ما هو من البطلان بأوضح مكان، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسُر دفعه، فيعمل بذلك مدة عمره، ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر"(١٤٢) .

لإظهار الغضب لله ـ عز وجل ـ من هذا المنكر العظيم(١٤٣) .

ليظهر التمايز بين المسلمين الخُلّص والمنافقين(١٤٤) .

إبداء النصيحة لهم، وإعلامهم أن ذلك الاستهزاء كفر يخرج صاحبه بسببه من الإسلام، وحثهم على التوبة العاجلة.

إقامة المحاضرات والخطب والندوات، وإعداد الكتب والمقالات التي تبين خطر هذا العمل المناهض للإسلام والشرع المطهر.

فضح المعاندين من أصحاب هذا المنهج المناوئ للدين، والكشف عن أساليبهم الفاجرة التي يتدثرون با لمحاربة الإسلام، فإن فضحهم وإعلام المسلمين بما يرمي إليه هؤلاء مما يكتم أنفاسهم، ويغلق أفواههم، كما أن ذلك يعطي غيرهم ممن يسير في ركابم درساً بليغاً، فلا يفكر حينئذٍ في إتيان مثل هذا العمل المشؤوم.

الفصل الثالث: موقف مؤمني الجن

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: إيمان الجن بالقرآن.

المبحث الثاني: دعوتم قومهم.

تمهيد:

الجن لغة مأخوذ من الاجتنان، وهو التستر والاستخفاء، سُموا بذلك لأنم لا

يُرون على طبيعتهم وصورتم الحقيقية[١٤٥] .

وأما الجن اصطلاحاً فهم: نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلفة على نحو ما عليه الإنسان، مجردون عن المادة، مستترون عن الحواس، لا يُرون على حقيقتهم، يأكلون ويشربون ويتناكحون، ولهم ذرية، محاسبون على أعمالهم في الآخرة[١٤٦] .

* * *

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ في كتابه الكريم موقف المؤمنين من الجن بالقرآن، فبين أنم آمنوا به وصدقوا أولاً، وثانياً: صاروا دعاة لقومهم إلى الإيمان بذا الكتاب، وهذا ما سوف أوضحه في المبحثين التاليين:

المبحث الأول: إيمان الجن بالقرآن

هذا أمر قرره الله ـ عز وجل ـ في القرآن في سورتين من كتابه هما سورة الجن وسورة الأحقاف، وهذا لا شك أنه تأييد للنبي ز بأن سخر ـ سبحانه ـ الجن للإيمان به وبالقرآن، فكان رسول الله ز مصدقاً عند الثقلين ومعظماً في العالَمين[١٤٧] ، يقول ـ سبحانه ـ ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً. يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً﴾[١٤٨] .

ههنا ما يفيد باستماع الجن للقرآن وتأثرهم به حتى وصل ذلك إلى الإيمان والتصديق به، وهو ما يعني الاستجابة الطبيعية للقرآن وإدراك طبيعته والتأثر بحقيقته.

والجن عندما آمنوا كان إيمانم عن اقتناع وتأثر بالغ بآيات القرآن، ولذلك قالوا إنم سمعوا(قرآناً عجباً) بليغاً يعجب منه لبلاغته[١٤٩]، وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واع، وقلب مفتوح، ومشاعر مرهفة[١٥٠]، ثم هو(يهدي إلى الرشد) يهدي إلى النجاح والفوز والسعادة لمن اتبعه بصدق في دنياه وأخراه، وفي آية الأحقاف: ﴿يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾[١٥١] .

وفي ذكر إيمان الجن بالقرآن هنا توبيخ واضح للمشركين "بأن الجن وهم من عالم آخر، علموا القرآن وأيقنوا بأنه من عند الله، والمشركون وهم من عالم الإنس، ومن جنس الرسول ز المبعوث بالقرآن، وممن يتكلم بلغة القرآن لم يزالوا في ريب منه

وتكذيب وإصرار، فهذا موعظة للمشركين بطريق المضادة لأحوالهم بعد أن جرت موعظتهم بحال مماثليهم في الكفر من جنسهم"(١٥٢) .

وقد ثبت في الحديث ما يفيد كذلك إيمان الجن بالقرآن، وذلك فيما رواه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: "انطلق رسول الله ز في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين، فقالوا: مَا لَكُمْ؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشُهب. قال: مَا حال بينكم وبين خبر السماء إلا ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربا، فانظروا ما هذا الأمر الذي حدث، فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربا ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلق الذين توجّهوا نحو ِتهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة(١٥٣) وهو عامد إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن تسمّعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشــد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله ـ عز وجل ـ على نبيه ﷺ : ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن﴾..(١٥٤) .

وروى علقمة قال: سألت ابن مسعود، فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ز ليلة الجن؟ قال: لا. ولكنا كنّا مع رسول الله ز ذات ليلة، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استُطير(١٥٥) أو اغتيل. قال: فبتنا بشر ليلة بات با قوم. فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حِراء. فقلنا: يارسول الله! فقدناك فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات با قوم، فقال: "أتاني داعي الجن فذهبتُ معه، فقرأت عليهم القرآن". قال: فانطلق بنا، فأرانا آثارهم وآثار نيرانم..(١٥٦) .

وقد جاء في رواية صحيحة(١٥٧) عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: "ما قرأ رسول الله ز على الجن وما رآهم" وفي الرواية التي ذكرتُها قبلُ ما يفيد أن رسول الله ز قرأن القرآن على الجن، وقد جمع الحافظ ابن حجر ـ يرحمه الله ـ بين الروايتين بأن قال: "ولكن لا يلزم من عدم ذكر اجتماعه بم حين استمعوا أن لا يكون اجتمع بم بعد ذلك"(١٥٨) .

وقال الإمام النووي في "شرحه": "قال العلماء: هما قضيتان، فحديث ابن عباس في أول الأمر وأول النبوة"[١٥٩] .

ومن هنا يتبين لنا أن من الجن مؤمنين بالله ـ تعالى ـ مصدقين برسوله ز محبين للخير، وبذا جاءت النصوص المتعددة التي تثبت حرصهم على سلوك الخير والبعد عن الشر، كما سيأتي في المبحث التالي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وإن عالماً آخر هذا شأنه لجدير ـ كما تقدم ـ أن يكون درساً وموعظة لمن حاد عن الصراط المستقيم، واتبع غير سبيل المؤمنين أن يستحيي من الله ـ عز وجل ـ فيبادر إلى الإيمان والعمل الصالح كما بادر أولئك النفر من الجن، فإن العيب كل العيب أن يكون المرء قريباً من الخير والجنة إن آمن ثم يحيد عنه متبعاً هواه، ويكون في الجن العالم الآخر من هو أفضل منه وأحرص على الخير، فليعلم من كان حاله كذلك أنه إن استمر على ذلك فلن ينفعه في الآخرة حسب ولا نسب، وكما قال ـ سبحانه ـ في الآيات الأخيرة من سورة الجن: ﴿قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دوني ملتحداً. إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن لـه نار جهنم خالدين فيها أبداً﴾[١٦٠]، وفي سورة الأحقاف عند ذكر دعوة المؤمنين من الجن قومهم إلى الإيمان والإسلام يقول ـ سبحانه ـ: ﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾[١٦١] .

المبحث الثاني: دعوتهم قومهم إلى الإيمان

عجيب حال هؤلاء المؤمنين من الجن عندما انطلقوا بلا تلكؤ ولا خور ولا جبن دعاة إلى قومهم للإيمان والإذعان برسالة سيد الأنام محمد بن عبدالله ﷺ وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، لقد امتلئت أحاسيسهم بشيء جديد، وحفلت مشاعرهم بمؤثر قاهر غلاّب، يدفعهم دفعاً إلى الحركة به والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام، وبيان أن من لم يذعن لهذا الكتاب، ولم يجب أوامره بالامتثال ونواهيه بالاجتناب فلن يعجز الله ـ تعالى ـ أن يأتي به ويوقع عليه الجزاء ويذيقه العذاب الأليم:

﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا

فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم. ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾(١٦٢) .

هكذا مضوا دعاة صادقين إلى قومهم، يبشرون وينذرون؛ لأنهم يرون أن عليهم واجباً لا يمكنهم السكوت عليه لحظة واحدة!

إن المسلم حين يقرأ هذه الآيات الكريمة يجيش صدره بالإكبار والتبجيل لهؤلاء النفر من الجن الدعاة الصادقين، أصحاب القلوب المؤمنة المحبة للخير. وإنه لدرس وأي درس لجميع المتخاذلين عن نصرة الدين مع توفر أسباب الدعوة عندهم.

إنه درس للعلماء أن يبلغوا دين الله ـ تعالى ـ للناس دون تكاسل أو إبطاء. درس للدعاة أن يشمروا عن ساعد الجد ليؤدوا الأمانة بكل تفانٍ وإخلاص. درس للمعلم في مدرسته، والأستاذ في جامعته، وإمام المسجد، وخطيب الجامع، درس لهؤلاء جميعاً أن يقوموا بواجب النصح للمؤمنين بكل ما آتاهم الله ـ تعالى ـ من قوة. وما أعظم الكلمة الصادقة حين تصدر من قلب مخلص لله ـ عز وجل ـ فتنطلق مخترقة شغاف القلوب، فتصيب مرماها إصابة تنحدر بسببها المدامع، معلنة التوبة والإنابة إلى ربها، طالبة مغفرته، راجية رحمته.

* * *

تلك هي دعوة الجن المؤمنين للتوّ، سقناها هنا لعلها أن توقظ نائماً، أو تنبه غافلاً، أو تذكر ناسياً.

ولا يزال التاريخ يذكر للجن المؤمنين مواقف رائعة، يفوح أريجها على مر الأيام والعصور، وتعاقب الليالي والدُهور.

روى الحسن بن محمد عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

ذات يوم لابن عباس: حدثني بحديث تعجبني به، فقال: حدثني خريم بن فاتك الأسدي قال: خرجت في بغاء إبل، فأصبتها.. فعقلتها وتوسدت ذراع بعير منها وذلك حدثان خروج النبي ﷺ، ثم قلت: أعوذ بعظيم هذا الوادي، قال: وكذلك كانوا يصنعون في الجاهلية، فإذا هاتف يهتف بي، ويقول:

ويحـك عُـذ بـالله ذي الجـلال — منـزل الحـرام والحـلال
ووحـد الله ولا تبـالي — مـا هـول ذي الجـن مـن الأحـوال
إذ تـذكر الله علـى الأميـال — وفي سـهول الأرض والجبـال
وصـار كيـد الجـن في سـفال — إلا التقـى وصـالحَ الأعمـال

قال: فقلتُ:

يا أيها الداعـي ما تحـيلُ؟ — أرشـد عنـدك أم تضـليلُ

قـال:

هذا رسـول الله ذي الخـيرات — جـاء بياسـين وحامِيْمَـاتِ
وسُـوَرٍ بعـدُ مفصـلاتِ — محرمـاتٍ ومحلـلاتِ
يأمر بالصوم والصـلاة

قـد كُـن في الأيـام منكراتِ(١٦٣)

الهوامش والتعليقات

(1) المائدة (٦٨).
(2) "تفسير القرآن العظيم" (٨١/٢).
(3) (٢٠٠/٦).
(4) انظر "تيسير الكريم الرحمن" (٣٢١/٢).
(5) "تفسر القرآن العظيم" لابن أبي حاتم (١١٧٤/٤).
(6) (٢٧١/٨).
(7) المرجع السابق (٢٧٠/٨).
(8) البقرة (٤١).
(9) "تفسير القرآن العظيم" (٨٤/١)، وانظر: "جامع البيان" (١٥١/١)، و"إرشـاد العقـل السـليم" (٩٦/١).
(10) المرجع السابق.
(11) الأنعام (١١٤).
(12) "جامع البيان" (٨/٨) وانظر "تفسير القرآن العظيم" (١٦٨/٢)، و"أنوار التنزيل" (٤٤٤/٢).
(13) "مجموع الفتاوى" (٣٩/١٢).
(14) المرجع السابق (١٢٦/١٢). وانظر (٢٩٦/١٢).
(15) الظلال (١١٩٤/٣، ١١٩٥).
(16) المائدة (٦٥ـ ٦٦).
(17) "أنوار التنـزيل" (٣٤٧/٢).
(18) آل عمران (١١٢).
(19) آل عمران "١١٣ـ ١١٥).
(20) آل عمران (١١٦).

(21) القصص (٥٢ـ ٥٥).
(22) انظر "زاد المسير" (٦/١١٠).
(23) المرجع السابق.
(24) المرجع السابق.
(25) "تفسير القرآن الكريم" (١/٤٢٤).
(26) آل عمران (١٩٩). والحديث أخرجه الحاكم وصححه (٢/٣٢٩) ووافقه الذهبي، وأخرجه النسائي (٦/٣١٩) والطبراني في الكبير (٢٢/١٣٦).
(27) النساء (١٦٢).
(28) النساء (١٦٠ـ ١٦١).
(29) أي جماعة انظر: "لسان العرب" (٥/٢٣١).
(30) أخرجه الطبري (٦/٢٥).
(31) ابن كثير (١/٥٨٥).
(32) الرعد (٣٦).
(33) "الجامع لأحكام القرآن" (٩/٣٢٦).
(34) الإسراء (١١٠).
(35) الأنبياء (٣٦).
(36) الرعد (٣٠).
(37) ذكره القرطبي في تفسيره (٩/٣٢٦).
(38) "مجموع الفتاوى" (١٦/٤٩).
(39) انظر "الصواعق المرسلة" (٣/١١٦٨).
(40) التوبة (١٢٤).
(41) يونس (١٢٤).
(42) انظر "الدر المنثور" (٣/٥٥٤).
(43) المرجع السابق.
(44) المرجع السابق و"الروح" ص٢٤٨.
(45) "الروح" لابن القيم ص٢٤٨.
(46) المائدة (٨٣).
(47) "جامع البيان" (٧/٥).
(48) المرجع السابق.
(49) انظر "السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية" للأستاذ مهدي رزق الله ص٢٠٨، ٢٠٩.
(50) آل عمران (١٩٩).
(51) المائدة (٨٣ـ ٨٤).

(52) المائدة (٨٥) وانظر "الظلال" (٩٦٢/٢، ٩٦٣).
(53) "الاعتصام" للشاطبي (٢١١/١).
(54) المرجع السابق.
(55) أخرجه أبو نعيم في "حلية الأولياء" (١٦٧/٣، ١٦٨).
(56) "تلبيس إبليس" ٢٤٦.
(57) المائدة (٦٠ـ ٦١).
(58) "تفسير القرآن العظيم" (٧٥/٢) وانظر "روح المعاني" (١٧٧/٦) و"معالم التنـزيل" (٤٩/٢).
(59) آل عمران (٧٢، ٧٣).
(60) "أنوار التنـزيل" (٥٢/٢).
(61) أخرجه الطبري (٣٠٩/٣، ٣١٠).
(62) الرعد (٣٦).
(63) "تفسير القرآن العظيم" (٥١٩/٢). وانظر "جامع البيان" (١٦٤/١٣).
(64) المرجع السابق.
(65) المرجع السابق.
(66) الأنعام (٩١).
(67) أخرجه الطبري (٢٦٧/٥) ط. دار الفكر.
(68) الأنعام (٩٢)، وانظر"الظلال" (١١٤٦/٢، ١١٤٧).
(69) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان من صحيحه، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا ز (١٣٤/١).
(70) البقرة (١٠٥).
(71) "جامع البيان" (٤٧٤/١).
(72) البقرة (٩٧ـ ٩٨).
(73) الظلال (٨٧/١).
(74) "التحرير والتنوير" (٥٢١/١).
(75) البقرة (٨٩ـ ٩١).
(76) "تفسير القرآن العظيم" (١٢٥/١) وانظـر "جـامع البيـان" (٤١٠/١) و"مجمـوع الفتـاوى" (٥١٥/١٦).
(77) الظلال (٨٤/١، ٨٦).
(78) التوبة (١٢٧).
(79) "جامع البيان" (٧٥/١١) وانظر "تفسير القرآن العظيم" (٤٠٤/٢).
(80) التوبة (١٢٧). وانظر "الصواعق المرسلة" (٢٨٧/١)، (١١٦/٣).
(81) الشورى (١١).
(82) التوبة (١٢٤، ١٢٥).

(83) "التحرير والتنوير" (٦٥/١١).
(84) "الظلال" (١٧٤٢/٣). "تفسير القرآن العظيم" (٤٩/١)، وانظر "جامع البيان" (١٢٢/١).
(85) "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" (٣١٦/٣). و"مفاتيح الغيب" (٣٦/٢).
(86) التوبة (١٢٧).
(87) الصف (٥).
(88) الإسراء (٨٢).
(89) التوبة ١٢٥، ١٢٦).
(90) "مجموع الفتاوى" (٣٣٥/١٥).
(91) البقرة (٩ـ ١٠)، وانظر "زاد المعاد" (٢٦١/٣) حيث ذكر مثالاً على موقف المنافقين من الآيات النازلة في قصة الإفك، وأنها لم تزدهم إلا إعراضاً وشراً.
(92) التوبة (١٢٥، ١٢٦).
(93) الإسراء (٨٢).
(94) الأنفال (٢٣).
(95) "إغاثة اللهفان" (٥٤٠/٢، ٥٤١).
(96) النساء (٦٠ ـ ٦١).
(97) (١٥٥/٤) ط. دار الكتب العلمية.
(98) (٩٩١/٣).
(99) (٣٧٣/١١).
(100) انظر "الدر المنثور" (٣١٩/٢).
(101) النساء (٦٠ ـ ٦٢).
(102) "الظلال" (٦٩٣/٢).
(103) النساء (٦١).
(104) انظر "التحرير والتنوير" (١٠٢/٥).
(105) "قواعد التفسير" تأليف د. خالد السبت (٢٤٩/١).
(106) الأحزاب (٦٠ ـ ٦١).
(107) "التحرير والتنوير" (١٠٧/٥).
(108) النساء (١١٦).
(109) "تبيين كذب المفتري" (٤٤/١).
(110) المرجع السابق.
(111) النور (٤٧ ـ ٥٢)، وانظر "مجموع الفتاوى" (٣٣٨/١٢، ٣٣٩).
(112) "مدارج السالكين" (٥٣/١).
(113) التوبة (٨٦، ٨٧).

(114) التوبة (٦٤ـ ٦٦).
(115) النساء (١٤٠).
(116) "الدر المنثور" (٤١٦/٢".
(117) الأنعام (٦٨).
(118) "الدر المنثور" (٧٣/٣).
(119) "الجامع لأحكام القرآن" (٤١٧/٥).
(120) التوبة (٦٥).
(121) الفرقان (٤١).
(122) التوبة (٦٥).
(123) "مجموع الفتاوى" (١٥/ ٤٨ـ ٥٠).
(124) النساء (١١٦).
(125) الحجم (٣١).
(126) المائدة (٧٢).
(127) المائدة (٣٨).
(128) انظر ذلك والرد عليه في "لا إله إلا الله" عقيدة وشريعة ومنهاج حياة" للأستاذ محمد قطب ص٧٩ـ ٨٠.
(129) انظر "تجديد الإسلام في غابة فرنسية!" مقال للأستاذ إبراهيم خضر بمجلة البيان، العدد (١٠٢).
(130) "غزو من الداخل" للأستاذ جمال سلطان ص٦٣.
(131) "العلمانيون والإسلام" ص١٢٢.
(132) انظر "تيسير الكريم الرحمن" للشيخ عبدالرحمن بن سعدي (١٩٨/٢).
(133) انظر "تفسير التحرير والتنوير" للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (١٥/ ١٤٨).
(134) التوبة (٦٥، ٦٦).
(135) "مجموع الفتاوى" (٥٥٧/٧).
(136) المرجع السابق (٢٢٠/٧). وانظر (٢٧٢/٧).
(137) الأنعام (٦٨).
(138) "أنوار التنزيل" (٤١٩/٢)، وانظر "تفسير القرآن العظيم" (١٤٥/٢)، و"الجامع لأحكام القرآن" (١٢/٧)، و"إرشاد العقل السليم" (١٤٧/٣).
(139) النساء (١٤٠).
(140) "فتح القدير" (١٢٨/٢)، وانظر "المحرر الوجيز" لابن عطية (٢٨٥/٤).
(141) "التحرير والتنوير" (١٣٥/٥).
(142) "فتح القدير" (١٢٨/٢).
(143) "التحرير والتنوير" (١٣٥/٥).

(144) المرجع السابق.

(145) انظر "القاموس المحيط" ص١٥٣٢ مادة (جنن) و"لسان العرب" (٩٥/١٣)، و"المفردات" ص٩٨و"تذيب اللغة" للأزهري (١٠/ ٤٩٩).

(146) انظر "الفصل في الملل والأهواء والنحل" لابن حزم (١٢/٥)، و"فتح الباري" (٣٤٤/٦)، و"فيض القدير" (١١٣/١).

(147) "تفسير التحرير والتنوير" (٥٧/٢٦).

(148) الجن (١ ـ ٢).

(149) "زاد المسير" (١٣٠/٨).

(150) "الظلال" (٣٧٢٧/٦).

(151) الأحقاف (٣٠).

(152) "تفسير التحرير والتنوير" (٥٧/٢٦).

(153) موضع بين مكة والطائف، انظر "فتح الباري" (٦٧٤/٨).

(154) أخرجه البخاري في كتاب التفسير برقم (٤٩٢١) وهذا لفظه، ومسلم في كتاب الصلاة برقم (٤٤٩)، وأحمد (٢٥٢/١) والطبراني في معجمه الكبير (٥٢/١٢) والنسائي في سننة الكبرى (٤٩٩/٦) والبيهقي في سننه الكبرى كذلك (١٩٤/٢) والترمذي (٤٢٦/٥) والحاكم (٥٤٦/٢).

(155) طارت به الجن، صحيح مسلم مع شرح النووي مختصراً (٣٣٢/١).

(156) أخرجه مسلم في كتاب "الصلاة" برقم (٤٥٠)، وأحمد (٤٣٦/١) والبيهقي في السنن الكبرى" (١٠٨/١)، وأبو عوانة في "مسنده) (٢١٩/١)، والترمذي (٣٨٢/٥)، وابن حبان في صحيحه (٢٨١/٤) وابن خزيمة (٤٤/١).

(157) أخرجها مسلم في كتاب الصلاة برقم (٤٤٩).

(158) "فتح الباري" (٦٧٥/٨).

(159) "شرح النووي على مسلم" (١٦٧/٤).

(160) الجن (٢٢ـ ٢٣).

(161) الأحقاف (٣٢).

(162) الأحقاف (٢٩ـ ٣٢).

(163) أخرجه الحاكم (٧٢٠/٣) والطبراني في الكبير (٢١١/٤) وذكره في مجمع الزوائد (٢٥١/٨) وقال: رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم، وذكرت بنحوه الأصبهاني في "دلائل النبوة" (١٦٧/١).

المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار الكتب العلمية.
٢- أحكام القرآن، ابن العربي، دار إحياء التراث العربي.
٣- إرشاد العقل السليم، أبو السعود، دار إحياء التراث العربي.
٤- إغاثة اللهفان، ابن القيم.
٥- أنوار التنـزيل، البيضاوي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦.
٦- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور.
٧- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١.
٨- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، المؤسسة السعيدية بالرياض.
٩- جامع البيان، ابن جرير الطبري، دار الفكر، ١٤٠٥.
١٠- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الشعب، القاهرة، ١٣٧٢، الثانية.
١١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، دار الكتب العلمية.
١٢- الروح، ابن القيم.
١٣- روح المعاني، الألوسي، دار إحياء التراث العربي.
١٤- زاد المسير، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية.
١٥- فتح الباري، ابن حجر، دار المعرفة.
١٦- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار العلم للطباعة والنشر، جدة.
١٧- لسان العرب، ابن منظور، دار الفكر.
١٨- مجموع الفتاوى، ابن تيمية.
١٩- المحرر الوجيز، ابن عطية، مكتبة ابن تيمية.
٢٠- المستدرك، الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية.
٢١- معالم التنـزيل، البغوي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٧.